

خلق آدم .. ونظرية التطور

(سلالة من طين)

د. محمد علي البار

وصف المولى سبحانه وتعالى مراحل خلق الانسان في سور عديدة من القرآن الكريم ، فكان أولها مرحلة الطين أو التراب . قال تعالى { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ** } [المؤمنون/١٢] ، وقال تعالى : { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ أَلْبَسْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ** } [الحج /٥] ، وقال تعالى : { **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } [الحجر: ٢٩، ٢٨] ، وقال سبحانه وتعالى على لسان إبليس اللعين : { **قَالَ لِمَ أُنْزِلُ لِأَسْجِدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** } [الحجر/٣٣] ، وقال سبحانه وتعالى : { **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ** } [الصافات/ ١١] .

وقد أمرنا سبحانه وتعالى بالسير في الأرض لمعرفة كيف بدأ سبحانه وتعالى الخلق . قال الله جل شأنه وعز سلطانه : { **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ** } [العنكبوت / ٢٠] .

قال الراغب الاصفهاني (مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم ، دمشق ، ١٩٩٢م ، ص ٤١٨) : { من سلاله من طين } : أي من الصفو الذي يسيل من الأرض . وسل الشيء من الشيء : نزع ، كسل السيف من الغمد ، وسل الشيء من البيت على سبيل السرقة ، وسل الولد من الأب . ومنه قيل للولد : سليل .

الحما : الطين الاسود . وقال الراغب الاصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن : الحمأة والحما : طين أسود منتن . قال تعالى : { **مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** } [الحجر/ ٢٦] .

والمسنون : الذي أسن . قال الراغب : { **مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ** } قيل : متغير . وقوله : { **لَمْ يَتَسَنَّهْ** } [البقرة/٢٥٩] معناه : لم يتغير . والهاء للاستراحة (أي هاء السكوت) .

قالوا : والمسنون الذي أسن وتغير وأنتن وظهرت منه الرائحة . ومن المعلوم أن طين المستنقعات تتصاعد منه غازات كريهة هي غاز الميثان وغاز النشادر (الأمونيا) ، وقد يتصاعد معها أيضا غاز كبريتور الهيدروجين ، وكلها كريهة ، منتنة الرائحة .

وتزعم النظرية الحديثة في الخلق التي قدمها أوبارين الروسي وهالدين الأسكوتلندي ، كل على حدة ، أن الأحماض الأمينية والأحماض النووية تكونت من العناصر الأولية من غازات المستنقعات . وقد قام ستانلي ميللر وهارولد أوري من الولايات المتحدة بتجربة في الخمسينات ، حيث تم تعريض غازات الميثان والنشادر والهيدروجين ، وماء لشحنة كهربائية في جهاز مفرغ فتولد منه أحماض أمينية وأحماض نووية (كتاب علم الأحياء لمجموعة من المؤلفين "مقرر على كلية الطب " : Solomon, Berg, Martin, Villee, Biology, Saunders . Company Philadelphia 4th Edition 1996,P.452-456 .

وهناك مجموعة من البكتريا ، وهي من البكتريا القديمة جدا التي ظهرت على الأرض قبل أكثر من ألف مليون سنة ، ولا تزال موجودة ، تسمى مولدات الميثان (Methanogens) ، وهي بكتريا لاهوائية (أي لا تعيش في وجود الأوكسجين بل تموت عند تعرضها له) ، وتوجد في المستنقعات ومواقع المزابل والمجاري (Sewage) ، وتولد هذه البكتريا غاز الميثان وغاز ثاني أوكسيد الكربون وغاز الهيدروجين .

وقد مرّ خلق الانسان من الطين في مراحل متعددة . قالوا : وترتيب ذلك أن آدم كان ترابا ثم اختلط التراب بالماء فصار طينا لازباً ، أي ملتصقا لازقا ، ثم تعفّن الماء مع الطين ، كما يحدث في المستنقعات ، فصار حمأ (طينا أسود اللون) مسنونا ذا رائحة منتنة . ثم يبس هذا الحمأ المسنون حتى صار مثل الصلصال ، وله صوت مثل الصلصلة . قال الراغب الأصفهاني ، في مفردات ألفاظ القرآن : أصل الصلصال : تردّد الصوت من الشيء اليابس .. وسمي الطين الجاف صلصالا . قال تعالى : { مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } [الرحمن/ ١٤] ، وقال : { مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآ مَسْنُونٍ } [الحجر/ ٢٦] ، والصلصلة : بقية ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحركه في المزادة (القربة) . وقيل : الصلصال المنتن من الطين ، من قولهم صلّ اللحم .. وقرئ أذا صلنا [وهي قراءة شاذة] أي أنتنا وتغيرنا ، من قولهم : صلّ اللحم وأصل .

أدم آخر المخلوقات

وقد اتفق أهل التفسير على أن آدم عليه السلام هو آخر المخلوقات . قال ابن جرير الطبري في تفسيره (جامع البيان) (تفسير ابن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن (طبعة دار المعرفة ، بيروت مصورة) ج١٢٥/١٢٦/١٢٦٠ .) عند قوله تعالى : { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } [الانسان / ١] ، هو آدم عليه السلام ، فقد مضى عليه حين من الدهر قبل أن يكون شيئا ، وقبل أن تنفخ فيه الروح . وروى معمر عن قتادة أنه قال : "كان آدم صلى الله عليه وسلم آخر مَنْ خُلِقَ من الخلق" .

واختلف أهل التأويل في الحين وأغلبهم أنه لا حدّ فيه . وذكر الفخر الرازي في التفسير الكبير مثله (التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢٣٥/٣٠ ، دار الكتب العلمية ، طهران .) وروي عن الحسن البصري انه قال : " خلق الله تعالى كل الاشياء ، ما يرى وما لا يرى ، من دواب البرّ والبحر في الأيام الستة التي خلق فيها السموات والارض ، وآخر ما خلق الله هو آدم عليه السلام ، وهو قوله تعالى : { لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } .

وقال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية : { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } [الانسان / ١] : وفي هذه الآية ما يشير الى ما قاله علماء طبقات الأرض أن الإنسان لم يوجد على الأرض إلا بعد خلقها بأحقاب طويلة . فقد كانت الأرض أولا ملتهبة بعد أن انفصلت عن الشمس ثم أخذت قشرتها تبرد بالتدرّج ، وأمكن أن ينبت فيها النبات ، ثم بعض الطيور ، ثم بعض الحيوان الداجن ثم الانسان "

وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَآ مَسْنُونٍ } (التفسير الكبير للفخر الرازي ج١٩٦/١٧٩-١٧٩) [الحجر/ ٢٦] . { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } : إشارة إلى ذلك الانسان الأول والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام . ونُقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : " قد انقضى قبل آدم ، الذي هو أبونا ، ألف ألف آدم أو أكثر" (هذا الكلام المنسوب للامام محمد الباقر إن صح عنه فهو يشير إلى ما تذكره المصادر الحديثة من وجود سلسلة من خلق الانسان أو شبيهه الانسان (Hominids) ، وهي مجاميع كثيرة متتالية أو حتى متعاصرة بلغت الملايين في أعدادها ، ولم يظهر ما يسمى الإنسان العاقل (Homo Sapiens) إلا متأخرا عنها جدا .)

انظر : كتاب علم الأحياء لسولومون وزملائه Biology, 4th Edition الطبعة الرابعة ١٩٩٦م الفصل ٢١ ، تطور الثدييات العليا The Evolution of Primates ، ص ٤٧٣-٤٨٥ .

وأقول (والكلام للرازي) : " هذا لا يقدر في حدوث العالم بل الأمر كيف كان ، فلا بد من انتهاء الى إنسان هو أول الناس ، وأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم فلا طريق الى إثباته إلا من جهة السمع " (انتهى كلام الرازي) .

نفخ الروح في آدم عليه السلام : وردت في القرآن الكريم في مواضع عدة قصة نفخ الروح في آدم عليه السلام .

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } [الحجر/٢٨-٣١] .

وقال تعالى : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ ۗ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [ص/٧١-٧٨] .

وقال تعالى : { الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۗ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } [السجدة ٧-٩] .

وقال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۗ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [بالاسراء/٨٥] .

وقد كرم الله آدم عليه السلام ، وسواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بالسجود له ، وعلمه الأسماء كلها ، وكرمه على كثير ممن خلق تكريما ، ومع هذا فإن إبليس اللعين لم ير إلا الطين ، وظن أن النار خير من الطين فأبى أن يسجد ، ولم ير وجه التكريم بالتسوية ونفخ الروح من رب العالمين . وامتلأ إبليس كبرا وعتوا وبغضا لآدم وذريته وعداوة له ، فكاد له حتى أخرجه من الجنة ، وأبعد كثيرا من ذريته عن طريق الهدى والنور ، وأوردهم النار ، فبئس الورد المورود .

والروح التي في آدم من جنس ما استأنث الله بعلمه . قال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۗ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الاسراء/٨٥] .

والروح مخلوقة مربوبة ، خلقها الله سبحانه وتعالى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية ، كما يحكيه عنه ابن القيم في كتاب الروح : " روح الأدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزي ، الامام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالاجماع ، وأبو محمد بن قتيبة .. قال : وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارئ النسمة أي خالق الروح " .

وقال الامام ابن القيم في كتابه " الروح " : " ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم ، كلها مخلوقة لله ، خلقها وأنشأها وكونها وابتدعها ثم أضافها الى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه .

ولهذا نؤكد على هذه النقطة ، إذ أن هناك من يتوهم أن الروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام ، هي جزء من ذات الله ، وكذلك تلك التي جعلها في عيسى عليه السلام ، وهذا كفر محض ، وللأسف فإن كثيرا من ترجمات معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية تقع في خطأ فاحش ، إذ تجعل الروح التي في آدم جزءا من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ويخطئون في فهم الآية وترجمتها { **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } [الحجر / ٢٩] ظانين أن من ، ها هنا ، بعضية ، والواقع غير ذلك ، فإن نسبة الروح الى الله ليست إلا تشريفا لآدم عليه السلام مثل قوله : بيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، ورسول الله ، وكلها إضافات تقتضي التشريف والتكريم ليس إلا . فالبيوت كلها بيوت الله ، والنوق كلها له ، والعبيد جميعا عبيده ، والخلق كلهم ملك يده فأضاف فرقة منهم وسمّاها حزب الله وعباد الله ، وعباد الرحمن ، وسمى الفرقة الاخرى حزب الشيطان وعباد إبليس والهوى ، وكلهم خلقه وعبيده ، إلا أن هذا الاصطفاء والاجتباء جعل الاضافة اليه . وكما يقول الإمام عبد الله العيدروس في كتابه " الدر والجوهر " . " فنزه القَدَم (أي الله) عن الحدث (أي المخلوق المحدث) ، وتنزه القديم (أي الله جل جلاله) عن المحدث .. وجلت الأزليّة عن الوصل والفصل . إضافتك اليه إضافة مزية لا إضافة جزئية . إضافتك اليه خصوصية لا اضافة بعضية ، إضافة قرب لا اضافة نسبة ، اضافة كرم لا اضافة قدم . وهو منزّه عن كل إضافة وإن قال : { **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** } .

هل خلق الله آدم على صورته ؟ جاء في سفر التكوين من التوراة المحرّفة : " وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم ، وعلى الارض وعلى جميع الدبابات التي تدبّ على الارض . فخلق الانسان على صورته . على صورة الله خلقه . ذكرنا وأنتى خلقهم " [الاصحاح ٢٨، ٢٧ : ١] . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا { **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** } [الشورى ١١/] ، { **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** } [الاخلاص ١-٤] .

ويعتقد اليهود والنصارى بأن الله (تعالى الله عن ذلك) يشبه الانسان ، وهو أمر موجود لدى جميع الامم الوثنية ، ويعتقد كثيرون أن ملوكهم وأباطرتهم هم من نسل الإله ، ومن هؤلاء : المصريون القدماء ،

والهنود ، والبوذيين ، واليابانيون الى القرن العشرين ، واليونان ، وما أكثر آلهة اليونان البشرية أو التي تشبه البشر .

وإذا ذهبنا الى الفاتيكان في روما ، وزرت أعظم كنيسة لدى النصارى ، وهي سانت بيتر (كنيسة القديس بطرس) وملحقها (السستين) ، ستجد في الملحق ، حيث يدخل مئات الملايين من السياح سنويا ، رسما على سقف الكنيسة يصور ما جاء في سفر التكوين من خلق الانسان ، وترى الله مرسوما على هيئة رجل ضخم الجثة ، كث اللحية ، مفتول العضلات ، ويخلق بيده آدم ، وهو على صورته وطبق الاصل منه إلا أنه اصغر حجما . وقد قام الفنان الايطالي المشهور مايكل أنجلو برسم هذه اللوحة على السقف وهو مستلق على ظهره مرفوع بسقالة لمدة ست سنوات ، وتعتبر تحفة فنية ، وعلى الجانبين من الجدران لوحات تمثل مقاطع من سفر التكوين رسمها كبار الفنانين مثل روفائيل ومايكل أنجلو .. الخ .

وهناك حديث صحيح ، أخرجه البخاري ومسلم وأحمد ، وكثيرا ما يساء فهمه . وفي رواية مسلم " كتاب البر " عن أبي حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته) ، ومثله عن أبي هريرة .

ورواه البخاري في صحيحه في كتاب الاستئذان وفي كتاب العتق ، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه ، وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٤٦/٥ الحديث : عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه) . قال ابن حجر : " ويدخل النهي كل من ضرب في حد أو تعزير أو تأديب ... " . قال النووي : " قال العلماء : إنما نهى عن ضرب الوجه لأنه لطيف بجميع المحاسن ، وأكثر ما يقع الادراك بأعضائه ، فيخشى من ضربه أن تبطل أو تنتشوه كلها أو بعضها " . والتعليل المذكور حسن ، لكن ثبت عند مسلم تعليل اخر ، فإنه أخرج الحديث المذكور من طريق أبي أيوب المراغي عن أبي هريرة ، وزاد : (فإن الله خلق آدم على صورته) . واختلف في الضمير على من يعود ؟ فالأكثر على أنه يعود على المضروب لما تقدم من الأمر بإكرام الوجه ، ولو لا أن المراد بالتعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها .

ثم ذكر ابن حجر رواية : أن الله خلق آدم على صورة الرحمن ، وأنها غير صحيحة بل موهومة من الراوي ، وذكر أن بعضهم أرجع الضمير على المضروب وبعضهم على آدم ، وبعضهم أرجعه إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو يؤول على ما يليق بجلال الله ، فليس كمثله شيء . وأيد ابن حجر إرجاع الضمير إلى المضروب ، ويؤيده ما جاء في الأدب المفرد للبخاري عن أبي هريرة مرفوعا : (لا تقولن قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته) أي على صورة الرجل الذي قيل له هذا الكلام . وكذلك أخرجه ابن أبي عاصم أيضا من طريق أبي رافع عن أبي هريرة . وقد ذكر الامام علي الرضا أن الضمير يعود على المضروب وكذلك فعل كثير من أهل العلم ، وهو الحق الذي لا شبهة فيه ، ويؤيده حديث سويد بن مقرن أنه رأى رجلا لطم غلامه فقال : أوما علمت أن الصورة محترمة . أخرجه مسلم وغيره .

تاريخ نظرية التطور (النشوء والارتقاء)

يخطئ كثيرون حين يظنون أن نظرية النشوء والارتقاء (التطور) نظرية حديثة لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر على يد لامارك ، ثم دارون الذي أشاعها وفصل فيها في كتابه " أصل الأنواع" ، الذي نشره لأول مرة عام ١٨٥٩م. والواقع أن هذه النظرية قديمة جدا ، وترجع الى الهنود الذين ذهبوا في تعاليمهم أن الأرواح تنتقل من حيوان الى حيوان ، وترتقي حتى تصل الى درجة الكمال في النرفانا . كما أن المايانيين ، الذين ترجع حضارتهم الى القرن السادس قبل الميلاد ، كانوا يعتقدون أن إله الأمطار خلق الإنسان بطريق التطور ، حيث خلق النهر أولا من مياه الأمطار ، ثم تكونت فيه الاسماك التي تحولت فيما بعد الى الانسان . وكثير من القبائل البدائية تعتقد أن أسلافهم تطوروا من حيوان معين ، أو حتى نبات معين انحدروا منه .

وامتلأت أساطير اليونان وغيرهم من الأمم بتطور الحيوانات ووجود حورية البحر وإنسان البحر ، وما حولها من قصص وخرافات (القنتور كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس) والسيرين (Siren) كائن خرافي له رأس امرأة وجسد طير) ، وحورية البحر (كائن خرافي له أصل من الحيوانات الثديية ، يصور على أنه رأس امرأة وجذعها ووسط سمكة وذيلها) ، وكذلك إنسان البحر في صورة رجل مركب على سمكة .

التطور عند فلاسفة اليونان

ويعتقد الفيلسوف اليوناني المشهور ديمقريطس (صاحب نظرية الذرة) أن الكائنات العضوية نشأت من التراب المبلل (طين اللازب) ثم جاء أنبادوقليس Empedocles (٤٤٥ ق.م) وأولع أشد الولع بتناسخ الأرواح (من عقائد الهنود المشهورة) ، وكان يعتقد أن الأشياء كلها تتكون من عناصر أربعة : الهواء والنار والماء والتراب . فإذا اجتمعت العناصر بزعة الاتحاد تحولت الى نبات ، ثم اتخذت الكائنات العضوية أشكالا مضطربة الرقي . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الانفس كلها سيرة واحدة ، كذلك لا يوجد في الطبيعة فرق بين جنس وجنس ، أو بين نوع ونوع ... ويقول أنبادوقليس : " والطبيعة تنتج كل نوع من الاعضاء والاشكال ، والحب (الاتحاد) يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولاء غريبة تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها (نفس كلام دارون الذي جاء بعد الفيلسوف اليوناني ب ٢٤٠٠ عام) ، وتارة أخرى يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثر ومواءمة ظروف الحياة ، والاشكال العليا كلها تنشأ من الاشياء السفلى (كل مزاعم دوران ولا فضل له في ذلك إذ أنه مسبق) . وقد كانت الذكورة والانوثة ، في بادئ الامر ، مجتمعتين في جسم واحد (وهو مشاهد في النباتات وفي كثير من الديدان) ثم انفصلتا ، وظلت كلتاهما تتوق الى الاتحاد مع الاخرى . ويوجد في مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ... فتعود الكائنات العضوية والنباتات عودا بطيئا الى صورة تزداد بدائية يوما بعد يوم " ...

ويقول أنبادوقليس: " وهاتان العمليتان المتبادلتان (عملية التطور وعملية الانحلال) ممستمرتان إلى أبد الدهر في كل جزء على حدة وفي الكل مجتمعا . وتتنازع القوتان قوة الانتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان في نظام عالمي شامل هو نظام الحياة والموت " (ول ديورانت : قصة الحضارة ، ج ٧ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، دار الجيل - بيروت / جامعة الدول العربية - تونس) .

ويعلق ول ديورانت على ذلك قائلاً: ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسبنسر ، أي أن هذا الفيلسوف الأوربي الحديث قد أخذ فلسفته من أنباندوقليس ، وكذلك فعل دارون ، إذ سرق نظريات هذا الفيلسوف اليوناني وادعاها لنفسه . والغريب حقا أن جميع من يؤمنون بنظرية دارون ، ومن بينها كتب البيولوجيا التي تدرّس في الجامعات بما فيها كليات الطب ، يرجعون الفضل الأول والآخر في هذه النظرية (على مافيه من ترهات وظنون لا تثبت للتمحيص العلمي الدقيق) الى دارون .. ثم جاء أرسطو وأكد أن ثمة تدرج دقيق وارتقاء من أحط الأنظمة العضوية الى أسماها . وأن من الصعب ان نفصل في درجات السلم الدنيا بين الحي والميت (وهو ما نراه اليوم في الفيروس والبيرون) فقد توجد درجة من الحياة حتى في الجماد اللاعضوي.

المسلمون ونظرية التطور

لقد استخدم كثير من فلاسفة المسلمين ومفكريهم نظرية التطور لاثبات النبوة ولم تكن نظرية التطور عندهم مدعاة للكفر والالحاد ، كما فعل اليهود بنظرية دارون حيث جعلوها معولا لهدم الأديان ، وخاصة المسيحية التي يحتقرونها ويعادونها (سرا) أشد العداء .

ولم ير علماء الشريعة والدين في هذه النظرية مدعاة للكفر ، بل وقفوا منها موقفا محايدا ، وهو إن صحت هذه النظرية فهي توضح قدرة الخالق سبحانه وتعالى ، وقد نقلنا ما ذكره الفخر الرازي في تعليقه على ما نسب الى الامام محمد الباقر أنه قال : " قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر " . وقال الرازي : وهذا لا يقدر في حدوث العالم ، بل الأمر كيف كان ، فلا بد من الانتهاء الى انسان هو أول الناس . وأما أن ذلك الانسان هو أبونا آدم فلا طريق الى إثباته إلا من جهة السمع " .

أحمد بن سهل البخلي : لعل أحمد بن سهل البخلي كان أول من ذكر نظرية التطور من المسلمين فقال في كتابه " البدء والتاريخ " : " ان الحيوان قد تولد من الرطوبة ، وانه كان يغشاه مثل قشور السمك ، ولما أتت عليه السنون صارت الى الجفاف واليبس فانقشر عنه ذلك القشر ... فهذا جملة قولهم في ظهور الحيوانات ، وآدم حيوان . فعند بعضهم أن آدم تولد من رطوبة الارض ، كما يتولد سائر الهوام ، وكان جلده كجلد السمك ، وعند آخرين أنه (أي آدم) ظهر شيئا بعد شيء ، ثم تركب على مرور الأزمان وصار انسانا " .

أحمد بن محمد مسكوية : يقول في كتابه " تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق " : " إن الموجودات كلها سلسلة متصلة ، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق الذي يليه ، فالنبات في أفق الجماد ، ثم يترقى حتى يبلغ أعلى درجة ، فإذا زاد عليها قبل صورة الحيوان ، وكذلك الحيوان يبدأ بسيطا ثم يترقى حتى يصل الى مرتبة قريبة من الانسان " .

ويزيد الموضوع تفصيلا في كتابه " تهذيب الأخلاق " ، ويتحدث عن التطور من الجماد الى أول أفق النبات والحشائش وما لا بذر له الذي يتطور حتى يصل أقصى مداه في النخل والكرمة ، الذي تتميز فيه الذكورة والانوثة . ثم ينتقل الى الحيوان الذي يبدأ من المرجان والحلزونات ، ثم يتطور ويتميز حتى يصل الى مختلف درجات الحيوان فيصل الى أقصى مداه في القرود الذي يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به

من غير تعليم ويبلغ من ذكائها أن تستكفي بالتأديب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله ... وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الانسان الذي يقبل العقل والتميز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها .

ويقول أحمد بن محمد مسكوية : " ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالادارة والسعي والاجتهاد ، الذي ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل الى آخره أفقه فإذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة وهذا أعلى مرتبة الانسان ... وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذي يسمى دائرة الوجود ، لان الدائرة هي التي قيل في حدها إنها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهي اليها بعينها . ودائرة الوجود هي المتأحدة التي جعلت الكثرة وحدة ، وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجدتها ، وحكمته وقدرته تبارك اسمه وتعالى جده ، وتقديسه ذكره " ..

ويقول : " أن الانسان لا يتم كماله الا بعد أن يصل الى ما قبله . وإذا صار انسانا كاملا ، وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه وصار إما حكيما تاما ، تأتيه الإلهامات فيما يتصرف من المحاولات الحكيمة والتأبيدات العلوية في التصويرات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا ، يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره . فيكون حينئذ واسطة بين الملائكة والأسفل ، ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين " ..

وهكذا يستخدم ابن مسكويه هذه النظرية في إثبات أن الإنسان عندما يترقى إلى أعلى درجاته في حالة النبوة ، يستطيع أن يتصل بأفق الملائكة ، ويستطيع أن يفهم عن الملك ويتلقى عنه الرسالة ، وهو في ذلك كله لم ينسلخ عن بشريته إلا أن قوة روحانية النبوة تجعله يستطيع أن يتلقى عن الملك .

ونرى نفس هذا الاتجاه عند الفارابي ، وإن كان الفارابي أسبق منه في الوجود . يقول الفارابي : " إن الله سبحانه وتعالى خلق الموجودات على ترتيب من الأبسط والأخس ، والأدنى الى المعقد والأعلى ، إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل بعده (وهو الإنسان) فأخسها المادة الأولى المشتركة ، والأفضل منها الاسطقات ، ثم المعدنية ، ثم النباتات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه " .

القزويني : ونجد نفس الاتجاه فيما بعد عند زكريا القزويني ، المتوفي سنة ٦٨٢هـ (تولى القضاء في واسط والحلة بالعراق ، وأشهر كتبه " عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات ") ويقسم القزويني الأجسام الى نام وغير نام ، وهو يقابل تقسيمها اليوم الى مواد عضوية ومواد غير عضوية . " وأن أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة . فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية " .

ونجد الاتجاه ذاته عند محمد بن شاعر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤هـ ، الذي يقول عن طبائع القرد : " إن هذا الحيوان (أي القرد) عند المتكلمين في الطبائع مركب من إنسان وبهيمة . وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة إلى الانسان " .

جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٧٣ م) : يعتبر جلال الدين الرومي من الصوفية الشعراء ذوي الحس المرهف مع تمتعه بثقافة واسعة جدا ، يشهد عليها ديوانه الضخم (ستة مجلدات بالفارسية ترجمت الى العربية) المعروف باسم المثنوي . وقد نقل لنا الشاعر الفذ محمد إقبال في كتابه " تجديد الفكر الديني " ما قاله جلال الدين الرومي ، وهو يصور نظرية التطور عند المسلمين ، وكيف استطاع هذا الشاعر الموسوعي أن يصيغها في قالب شعري ينبض بالحياة . يقول مولانا جلال الدين الرومي :

" عشت تحت الثرى في عوالم من تبر وحجر ، ثم ابتسمت في ثغور زهرات عديدة الألوان ثم جبت مع الوحش والزمان المنتقل فوق ظهر البسيطة ، وعلى متن الهواء وفي مناطق المحيط ، وفي ميلاد جديد غطست في الماء ، وحلقت في الهواء وحبوت على بطني ، وعدوت على قدمي ، وتشكل سرّ وجودي كله في صورة أظهرت كل ذلك للعيان ، فإذا أنا انسان . ثم أصبح هدفي أن أكون في صورة ملاك في ملكوت وراء السحاب ، وراء السماء ، حيث لا يمكن لأحد أن يتبدّل أو يموت ، ثم أعدو بعيدا ، وراء حدود الليل والنهار ، والحياة والموت ، مرئية كانت أو غير مرئية ، حيث كل ما هو كائن ، كان دائما واحداً وكّلا " .

وهكذا نرى قصة التطور في صورة شعرية أخّاذة تبدأ من التراب أو الحجر ، أما التبر فيشير فيه إلى الروح ... وتظهر الحياة في صورة نباتات بسيطة أولية ، ثم تتعدّد حتى تصل آخر ألقها في النباتات ذوات الأزهار ، وخاصة منها ما يتمايز إلى ذكر وانثى . ثم تنتقل إلى أفق الحيوان ابتداء من المرجان والحلزونات ، ثم يتمايز ويتطور حتى يصل إلى الزواحف والأسماك ، ثم يطير في الهواء مع من طار من مخلوقات ثم عاد إلى الأرض ليجبو على بطنه مثل الزواحف ، ثم بلغ منتهى تطوره في الرئيسات (Primates) من أمثال القردة وما بعدها من أشباه الانسان ، وعدا على قدميه ، وهو يصور الانسان الواقف على قدميه منطلق اليدين ، ثم تشكّل سرّ وجوده وبلغ مرحلة الانسان العاقل الحكيم (Homo Sapiens) . ولم يكتف بذلك ، بل انطلق مع النظرية التطورية الاسلامية ليصل إلى عالم الملائكة مع رفرقات الروح وألق الأنفس الطاهرة لتتجاوز السحاب في السماء ، ولتبقى الروح خالدة وراء الحياة والموت ، متصلة بخالق الكلّ في ذلك النور السرمدي .

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي الأصل ٧٣٢-٨٠٨هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) . يقول ابن خلدون في المقدمة تحت باب " تفسير حقيقة النبوة " ، وهو يشرح كيف يصل الانسان إلى مرتبة النبوة بفضل الله سبحانه وتعالى ليتلقى عن الملك : " ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النباتات ثم الحيوان على هيئة بدیعة من التدريج . وآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النباتات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النباتات ، مثل النخل والكرم ، متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال الغريب في هذه المكونات أن آخر أفق كل منها مستعدّ بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده .. وأتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدريج التكوين إلى الانسان صاحب الفكر والرؤية ، ترتفع إليه من عالم القردة (في المطبوع عالم القردة) الذي اجتمع فيه الحسّ والادراك ، ولم ينته إلى الرويّة والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده . وهذا غاية شهودنا .

ويقول : " ثم نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة . ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفي عالم التكوين آثار متنوعة من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ، ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها ، ولذلك هو النفس المدركة والمحرّكة . ولا بد من فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ، ويتصل بها أيضا ، ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا ، وهو عالم الملائكة . فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات في لمحة من اللحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه " .

وهكذا نرى كثيرا من علماء المسلمين ، ابتداء من الحسن البصري والامام محمد الباقر وابنه الامام جعفر الصادق ، ثم أحمد بن سهل البلخي ، وانتهاء ، بابن خلدون يدعمون نظرية التطور بأشد ما جاء به دارون في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، ولكنهم ، عكس ما فعل ، لم تكن دافعا لهم للكفر وانكار الدين ، بل كانت دافعا هاما من دوافع الايمان ، وشرح حقيقة النبوة حسب تصورهم ، وامكان أن يترقى الانسان ، بفضل الله سبحانه وتعالى وكرمه لأولئك العباد المخصوصين ، فيستطيعوا الاتصال بالملأ الأعلى والأخذ عن الملك فضلا من الله ونعمه ، وهم هم في بشريتهم لم يخرجوا عنها ، وإن كانت أرواحهم قد ارتقت الى مستوى الملائكة في لحظات الاتصال .

موقف المفكرين المسلمين المعاصرين من نظرية دارون :

ويؤكد هذه الحقيقة الشيخ محمد أحمد باشميل رحمه الله في كتابه " الاسلام ونظرية دارون " : " غير أن الذي يمكن استخلاصه من أقوال هؤلاء العلماء المسلمين ، وخاصة الامام الحسن البصري والعلامة ابن خلدون ، هو أنه ليس في القول بأن الله (سبحانه وتعالى) قد رقى الانسان وطوره من حيوان بسيط الى انسان كامل ، أي تكذيب للقرآن أو مساس بعقيدة المسلم الذي يترجّح لديه القول بهذا الرأي . إذ لو كان الأمر كذلك لما سكت المسلمون على قول ابن خلدون الذي صرّح به في مقدمته ، والذي أعلن فيه القول بنظرية التطور والارتقاء ، بل ذهب فيه الى القول بأن الانسان قد تحول ، أثناء مراحل التطورية ، من عالم القرود الى عالم الانسان " .

ويقول باشميل : " ولو كان في القول بأن أصل الانسان يرجع الى الحيوان أي تكذيب للقرآن ، أو مساس بعقيدة المسلم لما نقل الفخر الرازي هذا القول عن كبير أئمة التابعين الامام الحسن البصري ، دون أن يبدي أية مناقشة أو اعتراض " . وينتهي الشيخ باشميل الى القول : " إنه ليس في نصوص القرآن أو السنة النبوية الثابتة ما ينفي قواعد هذه النظرية (أي نظرية التطور) أو يثبتها ، وهذا في نظرنا كاف لعدم وجوب الزج بالاسلام عند الأخذ والرد حيال هذه النظرية بحيث لا تصدر نحن المسلمين حكما في حقها باسم الاسلام (لا بنفي ولا باثبات) ، بل نترك الامر على سبيل الجواز ، باعتبار أن ما جاء في وقائع نظرية دارون جائز أن يكون قد حدث " .

وممن قال بهذا الرأي الاستاذ محمد فريد وجدي صاحب دائرة المعارف ، في مادة " الانسان " حيث قال مانصه : " ولسنا نجزم بصحة مذهب داروين ، ولكننا نهدي من روع الذين يخشون من تحقق هذا المذهب في يوم من الايام على الاسلام ، وما ورد في آدم عليه السلام فنقول لهؤلاء : ليهدأ روعكم ، فإن كل ما ورد في خلق آدم عليه السلام يمكن صرفه عن ظاهره على مقتضى اسلوب القرآن نفسه " ...

وعلى هذا المنوال سار الاستاذ العقاد في كتابه " الانسان في القرآن " حيث يقول " هل يصيب الذين يحرمون باسم الاسلام مذهب النشويين المؤمنين بالخالق ؟ .

" وليس يخالجننا كثير من الشك ولا قليل في خلو كتاب الاسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله ، أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل . ولكن كتاب الاسلام لا يصد عن سبيل العلم في أي جهة من هذه الجهات" .

" إن مذهب التطور ، أي كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين ، أو إنكار الخالق ، أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير " .

وقد قال محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي) في تفسيره البحر المحيط ج ٤٤١/٥ في قوله تعالى : { فَأَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } [الحجر /٢٩] . { سَوَّيْتُهُ } : أكملت خلقته . والتسوية عبارة عن الاتقان وجعل أجزائه مستوية . { وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } : أي خلقت الحياة فيه ، ولا نفخ هناك ولا منفوخ ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه ، وأضاف الروح إليه على سبيل التشريف ، نحو بيت الله ، وناقة الله ، أو الملك ، إذ هو المتصرف في الإنشاء للروح والمودعها حيث يشاء " .

ونحن نقرر وجود النفخ والتسوية ، ولكنها دون ريب ليست مشابهة للنفخ والتسوية عند المخلوقين ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا { ليس كمثله شيء } .

ثم يقول الاستاذ العقاد : " وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بثّ روح الحياة في الطين ، وسوى الطين سلالة خرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية والنفخ والخلق يلغي كل ما عداها ، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتا محدودا باللحمة أو اليوم أو الدهر ، ويكون بمقدار يوم واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار " .

ويذهب الأستاذ محمد قطب في كتابه " الانسان بين المادية والاسلام " الى قريب مما ذهب إليه العقاد وفريد وجدي وباشميل ، حيث يقول " ولست هنا بصدد عرض نظرية دارون ، ولا أنا أحب أن أخطئ خطأ الكنيسة الأوربية حين كانت تعارض نظريته العلمية بنظرياتها الفلسفية ، والتي أثبت العلم أن معظمها صحيح " . وينتهي الى القول إن هناك جوانب عديدة من نظرية دارون لها مجالها العلمي ولكنها أخرجت عن المجال العلمي بواسطة اليهود الذين اعترفوا ، في بروتوكولات حكماء صهيون ، بأنهم رتبوا نجاح دارون وماركس ونييتشه بالترويج لأرائهم .. وتحويل ذلك الى تحطيم للأديان والأخلاق والقيم لتتم لهم السيطرة على العالم حتى يستطيعوا أن يصلوا الى حكم العالم والتمهيد لمجيئ المسيح الدجال ، ملكهم الاعور ، الذين يؤمنون به ويرون أنه قادم ، حسب نبوءات التوراة (المحرفة) .

ويقول الاستاذ محمد قطب في كتابه " التطور والثبات " : " بذل اليهود جهود الجبارة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين والداروينية على أمل تحطيم الدين في النهاية ، تحقيقا لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة ، وحقدهم في أوروبا على المسيحيين بصفة خاصة من أجل ما لا قوة من اضطهاد ... واستغلّت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال

ويقول : " ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة ، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحيّ كله ، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل ... وعرفوه في علمهم . يقول دريبر الأمريكي في كتابه " النزاع بين العلم والدين " : إننا لندعش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر ، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية ، الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرّس في مدارسهم ، وقد كانوا ذهبوا منه الى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن ، وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ومؤمنين بالأخلاق ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله " .

رأي سيد قطب في "ظلال القرآن" حول التطور

يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير قول تعالى : { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ** } [المؤمنون/ ١٢] : " وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها ، فيفيد أن الانسان مر بأطوار مسلسلة من الطين إلى الانسان . فالطين هو المصدر الأول أو الطور الأول ، والانسان هو الطور الأخير ، وهي حقيقة نعرفها من القرآن ، ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الانسان أو نشأة الأحياء .

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر في صنع الله ، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الانسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين ، ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة . وأما النظريات العلمية فتحاول إثبات سُلْم معين للنشوء والارتقاء لوصل حلقات السلسلة بين الطين والانسان ، وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة التي سكت القرآن عن تفصيلها . وليس لنا أن نخطئ بين الحقيقة الثابتة التي يقرها القرآن ، حقيقة التسلسل ، وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقات هذا التسلسل ، وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب ، وتثبت اليوم وتنقض غدا كلما تقدمت وسائل البحث وطرأه في يد الإنسان .

ويتحدث الاستاذ سيد قطب ، رحمه الله ، في تفسير قوله تعالى : { **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ** } **وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** } [السجدة / ٧] ، عن نشأة الانسان الأولى من الطين عبر تسلسل في مراحل النشأة : " وقد يكون ذلك إشارة الى بدء نشأة الخلية الأولى في هذه الأرض ، وأنها نشأت من الطين ، وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله ، وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد ، لا ما هو ؟ ولا كيف كان ؟ . ومن الخلية الحية نشأ الانسان ، ولا يذكر القرآن الكريم كيف تم هذا ولا كم استغرق من الزمن والأطوار ، فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح . وليس في هذا البحث ما يصادم النص القرآني القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كانت من الطين ، وهذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول ما يسفر عنه أي تحقيق صحيح " .

ولا شك أن نظرة علماء الاسلام الى التطور أعمق وأشمل من نظرة النشويين المعاصرين ، إذ تمتد نظرة هؤلاء العلماء من المسلمين ، الذين قالوا بهذه النظرية ، عبر الزمان والمكان فتصل بين جميع العوالم السفلية والعلوية في سلسلة متصلة من التدرج والترقي ، حتى ترتفع من عالم المادة البحت والتراب الخالص الى عالم الروح الألق الممتد عبر الكون على رحابته ، وشتان ما بين النظرتين ، على ما بينهما من اتصال في بعض الحلقات .

ونجد من الكتاب المعاصرين المؤيدين لنظرية التطور الدكتور مصطفى محمود ، وخاصة في كتابه " القرآن محاولة لفهم عصري " حيث أفرد فصلا بعنوان " قصة الخلق " لهذا الموضوع ، وبدأ بدارون ورحلته على السفينة بيجل ، وهو يجمع العينات من البرّ والبحر ، يدرس ويتأمل ويدون الملاحظات . ورغم أن الكائنات تبدو مختلفة أشد الاختلاف إلا أن الحيوانات كلها أصلها واحد ، ثم تطور هذه الاصل وتباين بسبب الظروف والبيئات . الحيوانات التي دبّت على الأرض طورت لأنفسها أرجلا ، والتي نزلت الى البحر تحوّرت فيها الأرجل الى زعانف ، والتي طارت في الجو تحوّرت فيها الأطراف الى أجنحة ، وكشف التشريح أن الأجنحة مشابهة للأطراف العليا عند الثدييات والانسان ، وزعانف الاسماك هي الأطراف المتحورة ، وحتى الثعبان له ارجل ضامرة مخفية في هيكله العظمي .

ويقول الدكتور مصطفى محمود ، بعد أن لخصّ النظرية بأسلوبه السهل الممتنع : " وعاش من نظرية دارون بعضها ، ومات بعضها ، حكاية أن الأنواع انحدرت من أصل واحد وأنها تباينت الى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تباين الظروف والبيئات ، كانت احتمالا مرجّحا أقرب الى الصحة تقوم عليه الشواهد ... أما حكاية ان الترقّي حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يد هادية فلم تعد مقنعة .. وسقطت من غربال الفكر المدقّق .. ونشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسّره قانون بقاء الأصلح " ، ويذكر أمثلة كثيرة على ذلك مثل الجمال الموجود في الكون وفي الحيوانات والنباتات ، دون أن يكون له غرض مادي ظاهر . والجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة (بلا لون ولا نقش) .. وما نراه من جمال في ورق الشجر وألوان الأزهار وأجنحة الفراش وريش الطواويس لا يخدم غرضا ظاهرا في معركة البقاء للأصلح ... ويعدّد الأمثلة من الدقة العجيبة التي نراها في الأحياء من نبات وحيوان ... وأن النظرية الدواروينية تعجز تماما عن تفسيرها . وأنه لا بد من وجود خالق حكيم مدبّر قدير يهندس الوجود ويصمّمه وينشؤه إنشاء ، ويبدعه إبداعا ، ولا يتوقف سبحانه عن هذا الخلق والابداع والتدبير والقومية .

ثم يستعرض مصطفى محمود بعض آيات القرآن الكريم في خلق الكون وكروية الأرض وخلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم .. وإرساء الجبال وانزال الماء ، وأهمية الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء / ٣٠] ، {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} [النور / ٤٥] ، ثم قصة خلق الانسان من تراب ، ثم التراب المختلط بالماء حتى أسن {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر/ ٢٨] .

ويذكر أن أيام الله ليست كأيامنا {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج/٤٧] ، ويفسر قوله تعالى {وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا} [نوح/١٤] ، بأنها أطوار قبل آدم عليه السلام ، كما ذكر قوله تعالى : {هَلْ أَتَى

عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا [الانسان ١/]. والحين من الدهر فترة زمنية طويلة ، وبأئدة لم يكن الانسان فيها شيئاً يذكر .

{وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} [نوح/١٧] ، يوضح ظهور الانسان مثل النبات من الأرض على مراحل ، وربط بين الانسان والنبات والحيوان .

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون/١٢] ، وهي دلالة على أن الانسان خلق من سلالات جاءت من الطين ، وهي سلالات متلاحقة عديدة كانت تمهيدا لظهور الانسان . ثم انتقل الى علم الأجنة وما ورد فيه من آيات باهرات .

وقصة الخلق مازالت من أمور الغيب ، وهي محل اجتهاد ونظر ، قال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت/٢٠] وآدم كان في جنة أرضية ، أهبط منها إلى مكان جديب على الأرض ، وقد هبط من مقام الرضا الى مقام المعصية ، ثم اجتباه ربه وهدى بعد توبته المخلصة . وآدم وذريته لم يبرحوا الارض {فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف /٢٥] ، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح/١٨، ١٧]... إنها الأرض لم نبرحها . وآدم وجد على الأرض {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود/٦١]، وهو خلق تمّ على مراحل وأطوار بأمر الله وقدرته .

ومن المؤيدين لنظرية التطور الدكتور عبد اللطيف حموش في كتابه " قصة الانسان : أصله ، بنيته ، دوره " ، وهو رسالة للتخرج من كلية الطب في دمشق ، وقد قدم له الاستاذ جودت سعيد . والكتاب يدل على عمق ثقافة هذا الطبيب الشاب مع ايمانه العميق بالله . ورغم ان الكتاب مليء بالحقائق العلمية والنظرات الفلسفية إلا أن أسلوبه مشرق ، ويبشر بمستقبل واعد ، مهما اختلفنا أو اتفقنا معه في تفاصيل آرائه ونظراته وفلسفاته .

المعارضون لنظرية التطور :

هناك عدد كبير من الكتاب الذين عارضوا نظرية التطور وهاجموها بشراسة ، ويرجع السبب في ذلك الى استخدام الملحدين لهذه النظرية ، وتحويلها ، من جانبها العلمي البحت القابل للنقاش ، الى جانب إلحادي ينكر وجود الله ، ويرجع عملية الخلق كلها الى الطبيعة والصدفة ، وهو أمر مناقض للعقل وللدين وللمنطق .

وبما أن عدد الذين كتبوا يفندون هذه النظرية على هذا الاساس الإلحادي كثير ، فإننا سنقتطف بعض الأمثلة .

السيدة منيرة الغاياتي وكتابتها " مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين " ، وهو كتيب قدم له الدكتور محمد البهي . وقد استدلّت الكاتبة الفاضلة بعدد كبير من الكتاب الغربيين ، منهم سير آرثر كيث الذي يقول : " إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين ، وستظل كذلك ، والسبب الوحيد في أننا

نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الايمان بالخلق المباشر ، وهذا أمر غير وارد على الاطلاق " . وتنقل ما قاله البروفسور واطسن (watson) من جامعة لندن : " ان علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو الاستدلال المنطقي ، ولكن لأن فكرة الخلق المباشر بعيدة عن التصور " .

ويؤكد ذلك البروفسور د.هـ. سكوت (Scott) بقوله : " إن نظرية النشوء جاءت لتبقى ، ولا يمكن أن نتخلى عنها ، حتى لو أصبحت مجرد عمل من أعمال الاعتقاد " . ويضيف السيرج .داوسون (Sir Dawson) : " هذا الاعتقاد هو نوع من الايمان الأعمى الممتزج بالسذاجة والخرافة " .

ويقول البروفسور مور (T.C.Moore) من جامعة سينسناتي بالولايات المتحدة : " كلما تعمقنا في دراسة البلويونتلوجيا (علم الأحافير = الإحاثة) ، كلما اكتشفنا ان نظرية النشوء تركز على الاعتقاد ، نفس الاعتقاد الذي تتطلبه الاسرار العظمى للدين " .

ويقول ج. بيب (J. Beebe) في كتابه " الطائر " : "إن التغيرات الاعجازية التي تفترض أنها قاصرة على القصاص الخرافية أمور عادية جدا في نظرية النشوء والارتقاء " .

ويقول الدكتور ماكنير ويلسون (McNair Wilson) في منشورات أوكسفورد الطبية (Oxford Medical Publications) : " إن نظرية النشوء لا تقل عن أي قصة خرافية حافلة بأغرب المخلوقات ، كالغيلان والقنتورات (كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس) والسيرانات (كائنات خرافية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور) .

ويعتمد أصحاب نظرية النشوء والارتقاء على دليل الأجنة وتشابهها الظاهر بين السمكة والفأر والانسان ، وهي التي قدمها أرنست هيكل (Ernest Haeckel) الذي يقول : " إن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع " .

ويعترف أرثر كيث (Arthur Keith) بقوله : "إننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه ، من أدنى أشكال الحيوان الى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين في كل مراحل تكوينه ، خابت آمالنا ، فالجنين (الانساني) لم يكن قردا في أي مرحلة من مراحل " .

ويعتمد أصحاب نظرية التطور على الأعضاء المندثرة ، ويصل عددها عند بعضهم الى مائة وثمانين عضوا . ولكن البروفسور جودريتش (E.S. Goodrich) ، من جامعة أوكسفورد ، يقول : " من الحماسة القول بأن أي جزء من جسم الانسان لا فائدة له " . ولو كانت هناك ثمة بقايا أعضاء ، فإنها حينئذ تكون شاهدا على التدهور لا على التطور والارتقاء .

الغش عند أصحاب نظرية التطور

ظهرت علامات الغش عند النشويين ، فإنسان جاوه ، الذي اكتشفه دبوا سنة ١٨٩١م ، ليس سوى قطعة من جمجمة بها بضعة اسنان ، وقد أثبت البروفسور فيرشاو (Virchow) أنها قطعة من جمجمة شمبانزي ، اما الفخد فقد ثبت أنه لرجل . أما إنسان بيلتدو (Piltadow man) فقد بني من شظايا جمجمة

ثبت ، فيما بعد ، أنها لإنسان ثم ركبت على عظم فك شمبانزي . أما فك إنسان هيدلبرج (Heidelberg man) فإنه مماثل لفك الإنسان المعاصر من الاسكيمو ، وفك إنسان بكين (Peking man) له نفس ملامح قبائل الفيديا المعاصرين الذين يعيشون في سيلان (سيرلانكا) اليوم .

ويقول البروفسور برانكو (W. Branco) : " إن علم الاحاث (البالونولوجيا) لا يعرف للإنسان أسلافا ، ويقول الدكتور ايريك واسمان في كتابه " البيولوجيا الحديثة ونظرية النشوء "

" (Eric Wasman ; Evolution: Modern Biology and the Theory) : " ان البقايا المكتشفة في الحفريات لا تؤيد ، من وجهة نظر علم الوراثة ، أي نظرية عن أصل الإنسان " . ويقول البروفسور فيرشاو (Virchow) : " إن فكرة القرد-الإنسان هي محض خرافة " .

وقد استخدم أرنست هيكل (Ernest Haeckel) رسوما للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان ، ولكنه اعترف فيما بعد بأن " عددا من رسومي كانت تزويرا محضا ، وان مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة " .

ويعترف دارون نفسه بأن الجيولوجيا لا ترينا دليلا على عملية التدرج ، وهذا هو الاعتراض الرئيسي الذي يواجه نظرية التطور " كما أنه ظل محتارا لماذا لم تتطور البكتريا القديمة أو المخلوقات القديمة الى اليوم ، رغم مرور ما يقرب من ألف مليون سنة على وجودها " .

ويقول البروفسور لوك (LOCK) : " إن الاختيار ، سواء كان طبيعيا أو اصطناعيا ، لا يمكن أن يخلق شيئا جديدا " . ويبدو أنه من المستحيل خلق أنواع جديدة من خلال الصفات المكتسبة أو الاختيار الطبيعي ، أو من خلال التحولات (الطفرات) الجينية . قد ثبت أن الطفرات (Mutations) الجينية الصغيرة تُضعف في الغالب النوع وتؤدي الى تشوهه أو ايجاد مرض فيه ، أما الطفرات الكبرى فتؤدي الى قتله .

وأما نظرية الصدفة وخلق الكون أو المخلوقات بالصدفة فيرد عليها عدد كبير من علماء الغرب ، وفي ذلك بقول العلامة أينشتاين : " لا أستطيع أن أصدق أن الكون قد نتج عن رمية زهر " . ويحوي كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " لمجموعة كبيرة من العلماء الغربيين ، أدلة قاطعة حول هذا الموضوع ، ونحيل القارئ الكريم عليه .

وقد نشرت المجلة الطبية البريطانية (British Medical Journal) ، في عدد مارس ١٩٤٦م ، مقالا جاء فيه : " لقد عثر الأثريون على بقايا بشرية تعود الى زمن ما قبل الطوفان. وتدل هذه البقايا على طول أعمار غير عادية لأصحابها . وكان أكثر ما لفت الأنظار هو أن أسنانها برت حتى وصلت الى اللثة من طول استعمالها . وثمة دلائل قديمة وفيرة تؤكد أنه قد عاش على ظهر هذه الارض جنس من نوع أروع في كماله الجسدي وجمال عضلاته وأكبر في حجم جمجمته من الإنسان المعاصر الى حد كبير " (ورد في الاحاديث أن طول أبنينا آدم أربعون ذراعا ، كما أن عمر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين ، كما نص عليه القرآن الكريم) .

وتزعم نظرية التطور أن اللغة قد تطورت عن الخوار والزئير والاصوات المبهمة ، بينما تقول مجلة العلوم المصورة (Science Illustrated) " إن أقدم أشكال اللغات الموجودة حاليا كانت أكثر تعقيدا من صيغتها المعاصرة " .

وفي كتاب " خلق لا تطور " ، تعريب الدكتور إحسان حقي ، وجمعه ، من مجموعة من الكتب الغربية التي تعارض التطور ، يقول رئيس الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم في مقال نشره في مجلة "العلوم": إن العلماء يعترفون بأن مراحل التطور إنما بنيت على الحدس والتخمين والتأويل ، وهي نوع من الفرضيات . وفي كتاب دارون نفسه " أصل الأنواع " أكثر من ٨٠٠ جملة ارتيابية مثل : قد نستطيع أن نستنتج ، قد يمكن أن يكون .. وهذا يدل على أن مراحل التطور افتراضية " .

ويقول العالم الفسيولوجي تهميسيان (T. Tahmisian): " إن العلماء الذين يؤكدون أن التطور واقع علمي هم منافقون ، وإن ما يرونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحتوي على نقطة من الحقيقة " ، ويقول عن نظرية التطور بأنها خليط مضطرب من الاحاجي وشعوذة الارقام .

وقال الدكتور كلوتز (J. Klotz) : " إن الاعتقاد بالتطور يحتاج الى كثير من السذاجة " .

وكتب الدكتور جان روستان في كتابه " التطور " ، يرد على أصحاب الداروينية الحديثة الذين يرجعون مراحل التطور الى طفرات (Mutation) في عالم الجينات فقال : " إن الطفرة التي نعرفها تؤدي الى الحرمان من عضو أو زيادة عضو أو فقدان وظيفته ، ولا يأتي بشيء جديد . ولا أستطيع أن اعتقد بأن هذه الهفوات الارثية ، حتى مع مساعدة ما يسمى الاصطفاء الطبيعي ، وحتى مع طول الزمن بأن تنشئ كل عالم الاحياء بما يحويه من ثراء ولطافة ومن مؤهلات عجيبة " .

وتقول نظرية التطور بأن الحياة الأولى ظهرت من الجماد بوسائلها الخاصة ، وهذا امر غير منطقي ولا معقول ، فلو أخذنا مكونات السيارة من الحديد والزجاج والنحاس والمطاط وغيرها ، وجعلناها في برميل ، وحركنا البرميل ملايين المرات لملايين السنين ، فلن تنتج لنا سيارة . والخلية الحية أعقد بكثير من السيارة ، فكيف تحول الجماد فجأة الى خلية حية بمجرد الصدفة . والخلية العصبية أشد تعقيدا من أضخم الكمبيوترات .. والفيروس وهو مرحلة بين الجماد والحي ومكون من أحد الحامضين النوويين الـ (DNA) أو الـ (RNA) هو مخلوق في غاية التعقيد ، وتبذل الجهود الجبارة المتخصصة لمعرفة آثاره ، وهو دائما يعيش متطفلا داخل الخلايا من البكتريا (Bacteriophage) الى الانسان مرورا بالنبات والحيوان . إن تصور أن يخلق فيروس بذاته بمحض الصدفة هرطقة وخرافة لا يمكن قبولها بأي منطوق علمي أو حتى ادراك عقلي ، إذ لا بد لهذه المخلوقات من خالق حكيم قدير مبدع مصور عالم خبير لطيف .

ويتحدث شمس الدين آق بلوت في كتابه " دارون ونظرية التطور " (ترجمة أورخان محمد علي) عن نظرية التطور ، وكيف تحولت الى عقيدة تؤدي بأصحابها الى التعصب والى الغش والخداع ، وتزوير الأدلة مثل قصة إنسان بلنداون (Piltdown) ، والصور المزيفة التي اعترف أرست هيكل بتزويرها للأجنة (سبق الإشارة إليها في كلام منيرة الغاباتي) .

يقول أدوارد لوتر كيسيل : ، أستاذ علم الاحياء في جامعة سان فرانسيسكو : " إنني واثق أن كلمة التطور قد أسيء فهمها في كثير من الدوائر ، حتى صار مجرد النطق بها يثير التعجب . إنني أفهم ما يصفه هؤلاء الأصدقاء ، بل أنفق معهم في أن التطور المقصود هنا هو التطور المادي أو الميكانيكي ، الذي ينبغي أن نفرق بينه وبين التطور الخلقى أو الابداعي كل التفرقة . ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا الى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس الروح والامانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به الى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرّروا عقولهم من سلطان التأثير بعواطفهم وانفعالاتهم فإنهم سوف يسلمون دون شك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذي يفسر الحقائق ، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك الى ادراك وجود السبب الاول ، الذي هو الله .

" وكما ينبغي أن يتدبّر العالم المتفتح العقل وجود الله ويسلم به ، فإن غير المشتغل بالعلوم ينبغي له أن يفحص هو أيضا هذه الادلة ، ويدرك أن التطور الابداعي هو وسيلة الخالق في خلقه ، وان الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته وسنّ القوانين الطبيعية ، فالخلق الابداعي هو التفسير الوحيد الذي يوضح لنا سرّ هذا الوجود ، ويوفق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة التي نقرأ صفحاتها في جميع العلوم المختلفة .

" والانتخاب الطبيعي هو أحد عوامل الميكانيكية للتطور ، كما أن التطور ليس إلا أحد السنن الكونية ، والقوانين الطبيعية ، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى ، يقوم بدور ثانوي ، لانه هو ذاته يحتاج الى من يبدعه ، ولا شك أنه من خلق الله وصنعه . والكائنات التي تنشأ بطريق الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضا كما خلق القوانين التي تخضع لها . فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئا ، وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة ، والتكاثر بين الانواع المختلفة . أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها هذا الانتقاء ، فإنها نشأت عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها ، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون ، أو يريدوننا أن نعتقد .

" إن الطفرات أو التغييرات الفجائية ليست خبط عشواء ، كما يدّعي بعض الباحثين ولكنها تثبت طلاقة المشيئة الالهية وعدم حدها في السنن والقوانين الكونية . والانتخاب الطبيعي الذي يعتمد على الطفرات لا يقضي الا على الاعضاء الضارة ، ومع ذلك فإننا نشاهد أن الاعضاء التي ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل هي الأخرى ، مما يثبت أن الطفرات ليست دائما عشوائية ، وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء ... ولا مفر من التسليم بأن هناك حكمة وتدبيراً وراء الخلق ووراء القوانين التي توجّهه ، ولا مفر لنا من التسليم كذلك بأن التطور ذاته قد صمم بحكمة ، وأنه هو أيضا يحتاج الى خالق يبدعه " .

ويقول : " ليس التطور الا مرحلة من مراحل الخلق ... وإن فكرة التطور الخلقى لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية ، بل على النقيض من ذلك نجد من الحمافة والتناقض في الرأي أن يسلم الانسان بفكرة التطور ، ويرفض ان يسلم بوجود الخالق الذي أوجد هذا التطور " .

وهكذا تتحول نظرية التطور عند أدوارد كيسيل واضرابه الى دليل ايمان ، بدلا من أن تكون دليل كفر.

والخروج على السنن الكونية يثبت طلاقة المشيئة ، لا كما تصوّرها السير مدور (وهو من أصل لبناني والحاصل على جائزة نوبل في علم الاحياء) الذي يرى أن هذا الخروج على السنن الكونية في علم الاحياء يورث شكاً في قضية الألوهية .

ولو علم أن من صفات الله سبحانه وتعالى ان مشيئته طليقة ولا تنقيد بالقوانين ، وانه يجعل النار المحرقة بردا وسلاما على ابراهيم ، ويجعل العصا بيد موسى حية تسعى ، لعلم أن ذلك دليل ايمان لا دليل كفر ، وهو أحد أدلة المعجزات الخارقة للقوانين الطبيعية .

والمخلوقات جميعا محتاجة الى رعايته وقيوميته ، فلا تقوم السموات والارض وما بينهما وما فيها من المخلوقات الا به ، وكلما صعدا من عالم المادة والجماد الى علم الاحياء ، كلما ظهر ذلك جليا واضحا . فعالم المادة والجمادات لا يكاد يخرج منها شيء عن السنن الكونية إلا فيما ندر ، أما في عالم الاحياء ، وبالذات في عالم الانسان المعقد التركيب ، تزداد الحاجة الى رعاية الله وقيوميته له في كل لحظة ولمحة وثانية ، وكلما ازداد التعقيد في الخلق كلما خفيت علينا القوانين التي تحكمه وتسيّره . فالقوانين الكيميائية والفيزيائية التي تحكم عالم المادة واضحة بصورة عامة (وإن كانت الابحاث الأخيرة تجعلها أشد تعقيدا مما كنا نظن) ، أما القوانين التي تحكم عالم الجينات وعالم الانسان فهي معقدة أشدّ التعقيد ، وتبدو وكأنها خبط عشواء (وهي ليست كذلك في واقع الامر) ، وهذا كله ما دفع الدكتور السير مدور أحد أشهر علماء الأحياء في القرن العشرين ، بأنها خافية وغير واضحة ... وهي كذلك . فالانسان المعقد التركيب يحتاج في كل ثانية ولمحة الى رعاية الله وقيوميته ، فلا يقوم الا بربه ، وهو دائما وأبدا مفتقر اليه تمام الافتقار ، لا يستطيع أن يحرك أنملة أصبعه الا بهذه العناية الربانية المستمرة والرحمة الالهية الفياضة ، وهو مع ذلك لا يعلم شيئا عن تلك الرعاية ولا يحسّ بها ولا بأثرها إلا من رحم ربك ، وفتح الله بصره وبصيرته لادراك هذه الرحمة ، وهذه العناية وهذه القيومية المستمرة الدائمة .

ولما كانت ثقافة علماء الغرب ، في معظمها أوكلها اغريقية ، فهي لا تستطيع أن تتصور الاله الا كما تصوّره فلسفات أرسطو وأفلاطون ، منعزلا لا يتفكر في ذاته ... وأنه وضع لهذا الكون نواميسه وقوانينه ، فهي تسير لا تحيد عن هذه القوانين قيد انملة . والامر غير ذلك على حقيقته ، والله سبحانه وتعالى يدبّر هذا الكون ولا يخليه من رحمته وقيوميته لحظة ولا ثانية . ولهذا نرى مدور وأمثاله من العلماء يحنّون عندما يرون علوم الاحياء وكأنها لا تنتظمها هذه القوانين الصارمة الا لتخترقها الاستثناءات ، ويؤدي ذلك لديهم الى الشك في قضية الألوهية ذاتها ، وهي نظرة مبنية على فلسفة ارسطو وافلاطون التي تتخيل ان الله (تعالى عن ذلك علوا كبيرا) منعزل عن مخلوقاته ، متفكر في ذاته ، وقد ترك كونه هملا .

ولو علم مدور وأمثاله أن صفات الله سبحانه وتعالى كما أوضحتها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لعلم أن من صفاته سبحانه وتعالى القيومية ، وانه يرفع مخلوقاته في كل لمحة وثانية لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهذه الرعاية تتجلى في مخلوقاته الحيّة أكثر مما تتجلى في الجمادات . وكلما تعقد التركيب في الكائن الحي ظهرت تلك الرعاية والقيومية بجلاء أكثر ، فهي في أعلى صورها وأشدّها نقاء في الانسان الذي كرّمه الله بنفخ الروح فيه والتسوية بيده واسجد الملائكة له فيه تتجلى صفات المولى سبحانه وتعالى من الرحمة والعدل والقيومية والكرم والفيض ... وهو لا يقوم الا برّبّه ولا يزال مفتقرا اليه في كل لحظة وأن .

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۗ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۗ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [آل عمران ٢/].

نظرية التطور في العصر الحديث

ظلت الكنيسة في أوروبا تعيق التقدم العلمي وتحارب وتعدم العلماء وترهبهم ، وكانت مصرّة على آرائها القديمة المغلوطة عن الكون والارض والانسان ، وكانت تحدّد عمر الكون ، من بدايته الى نهايته ، بسبعة آلاف سنة فقط ، مما هو مخالف لابسط المعلومات الجيولوجية الكونية .

ويقول ول ديورانت: إن القاضي الأسكوتلندي جيمس بيرنت (صار اللورد مونيودو) كان داروينيا قبل دارون بزهاء القرن . ففي كتابه " أصل اللغة وتقدمها (١٧٧٣م) صوّر انسان ما قبل التاريخ كائنا بغير لغة ولا نظام اجتماعي ولا يتميز عن القرده . فالانسان والأورنج تان (نوع من القرده المتقدّمة) ينتميان لجنس واحد .. وتاريخ البشر ليس هبوطا من حالة الكمال الاصلية كما جاء في سفر التكوين ، بل صعود بطيء أليم .

ويُعتبر أرازمس دارون ، جد شارلز دارون والطبيب البارز في عصره ، أحد القائلين بنظرية التطور قبل حفيده بستين عاما تقريبا . ففي كتابيه " فسيولوجيا الحيوان " و "هيكل الطبيعة " أكد أن التولد الذاتي هو أكثر النظريات احتمالا في أصل الحياة ... " وولدت الحياة العضوية تحت الامواج الطاغية في كهوف المحيط ، حيث ظهرت أولا كائنات دقيقة لا ترى إلا بالمجهر على الوحل ، ثم تخترق اليم ، وبعد أجيال متعاقبة تكتسب قدرات جديدة ومن ثم تظهر مجاميع لا حصر لها من النبات ، وممالك حيّة تتنفس ، من ذوات الزعانف والأرجل والأجنحة ... وهكذا تطورت الحياة من الكائنات البحرية الى البرمائية في الطين ، ثم الى الأنواع التي لا تحصى في البحر والجو ، وكان هناك صراع للبقاء ، وفي هذا الصراع حدث الارتقاء بتطور الأعضاء نتيجة محاولات لتلبية الحاجات " ، سابقا بذلك لامارك الفرنسي حيث يقول : " إن كل الحيوانات تمرّ بتغييرات بسبب الحاجة للطعام أو غيره ، وكثير من هذه الاشكال أو الميول المكتسبة تنحدر الى ذريتها " ، وهو القول الذي قال به لامارك ورفضه شارلز دارون رفضا قاطعا ، والذي أكد أن الصفات المكتسبة لا تورث ، ولا يزال العلم الحديث مترددا في هذه النقطة كما سنبينه فيما بعد .

لامارك (شيفاليه) (١٧٤٢-١٨٢٩م) : يعتبر لامارك الفرنسي أحد اعلام القرن التاسع عشر عندما وضع نظريته في التطور .. وهو أول من أسس علم الأحافير (الاحاثه) اللاقاري . وقد استنتج لامارك من دراسته للنباتات والحيوانات أنها تغيّر شكلها لتتواءم مع بيئتها ، وأن هذه التغيرات تنتقل الى نسلها ، وهو ما نفاه دارون فيما بعد نفيًا تاما . وقال : " وكل شيء يبهرن على أنه لم يكن بمقدور الأشكال الحيّة ان تتكون في الوقت .. بل تكونت من البسيط الى المعقد على مدى حقبة زمنية متطاولة بتأثيرات البيئة ، وقدرة هذه الكائنات على التكيف بتغيير وتطوير اعضائها " .

شارلز دارون (١٨٠٩-١٨٨٢ م): ولد شارلز دارون في انجلترا في شروسبري من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية ، وكان جده أرازمس دارون ، كما أسلفنا طبيبا ناجحا وباحثا في حياة الحيوان وهيكلة الطبيعة ... وكان ضمن علماء القرن الثامن عشر الذي آمنوا بنظرية التطور ووقفوا ضد الكنيسة في تصوراتها عن الخلق ، وسبق لامارك في آرائه حيث آمن أن التغييرات التي تقوم بها الحيوانات أو النباتات لتوائم بيئتها تورث الى نسلها .

ورغم أن لدارون العديد من الكتب العلمية ، مثل كتاب " تركيب وتوزيع طبقات الفحم " (١٨٤٢م) ، و " وصف حياة المحار " (١٨٤٥) ، و " النباتات آكلة اللحوم " و " حركات وعادات النباتات المتسلقة " ودراسته " للإخصاب بالطريق المباشر وطريق التهجين " و " قدرة النباتات على الحركة " ، إلا أن أهم كتبه على الإطلاق وأكثرها انتشارا ورواجا كتابه " أصل الأنواع " ، يليه كتابه " أصل الانسان فيما يتعلق بالجنس " ، ثم يليه كتابه " التعبير عن الانفعالات عند الانسان والحيوان " (١٨٧٢م).

ورغم أن كتاب " أصل الأنواع " أثار ضجة كبرى ، واستخدم لمهاجمة الكنيسة وعقائدها ، ويعتبره اللاحاديون أهم اسلحتهم في مواجهة الدين ، إلا أن دارون نفسه لم يكن ملحدا . فقد جاء في مذكراته : " ولقد ترددت كثيرا في حياتي بين كثير من المعتقدات ، وتأرجحت عاطفتي الدينية بين الصعود والهبوط ، ولكني في أشد اللحظات لم أشعر قطّ بأنني كنت ملحدا ، ولم أنكر قطّ وجود الله ، واعتقد ، بصفة عامة وخصوصا عندما أخذت اقترب نحو الشيوخة ، أن اللاأدرية (Agnosticism) هي المبدأ الذي ينطبق أكثر من غيره على آرائي الدينية " .

وقد لاحظ دارون أن المزارعين ومربي المواشي قد انتجوا ، بجهودهم الخاصة ، انواعا جديدة من النباتات وحيوانات مهجنة لها صفات لم تكن لأسلافها . وكان دارون يرى أن عملية مماثلة من الانتخاب والاختيار قد حدثت في الطبيعة بشكل أدى إلى الوجود المتكاثف لكل هذه الانواع من النباتات والحيوانات ، وسمّى هذا الانتخاب الطبيعي .

وأوضح دارون أن الكائنات الحية تنتج أجيالا أخرى كثيرة مشتركة ليحلّ بعضها محلّ بعض ، وأن الأرض لا تستطيع ان تتحمل أعباء حياة كل هذه الكائنات ، ولذلك فإن عليها ان تتنافس في الحصول على الطعام والمكان . وبما أن الطبيعة تنتج مجموعات كبيرة تختلف في بعض التفاصيل عن مثيلاتها ، فإن تلك التي تمتلك هذه الصفات المطلوبة هي التي تستطيع البقاء ، وسمّى ذلك البقاء للأصلح ، وهو في هذا يختلف في منهجه عن لامارك ، ولنضرب بذلك المثل المشهور وهو الزرافة ، حيث كان لامارك يقول : ان الزرافة اضطرّت لأكل أوراق الأشجار العالية في ظروف مناخية محدّدة أنهت العشب الموجود فأدى ذلك الى استئطالة رقابها ، ثم ورثت هذه الصفة لنسلها . أما دارون فقد سخر من هذا التعليل ، وقال : " بل كان هناك مجموعة من الزرافات لها عنق طويل من الاساس ، ومجموعات أخرى ذات عنق قصير فلما حصلت الظروف المناخية التي أدت الى هلاك العشب ، مع بقاء الاشجار العالية هلكت جميع أنواع الزراف ذوات العنق القصير ، ولم يبقَ منها الا ذوات العنق الطويل ، وهي التي تكيفت في هذه الظروف بناء على ما وهبتها الطبيعة (حسب تعبيره) من خصائص مناسبة ، وبالتالي تناسلت هذه الزرافات ، ولم يبق من الزرافات إلا تلك المجموعة من ذوات العنق الطويل .

وكان دارون نفسه يتساءل عن الاسباب التي تحدث هذه التغييرات الفجائية أو الطفرات ؟ وما هي الوسيلة أو الوسائل التي تنتقل بها هذه التغييرات إلى الذرية ؟ وكان يعترف صراحة أنه لا يستطيع الاجابة على هذه الاسئلة ، وانما يتركها ليجيب عنها العلماء من بعده ، وهو ما فعله أصحاب الداروينية الحديثة (Neo Darwinism) الذين أرجعوا ذلك الى الطفرات في الجينات ، وما يحدث فيها بانتظام من تغييرات طفيفة تتراكم على مدى الاجيال لتحدث تغييرات عميقة كبيرة ، وهذه التغييرات لا تحدث في جيل أو جيلين بل على مدى آلاف ، وربما ملايين السنين .

ويركز دارون على ما اسماه الانتخاب أو الانتقاء الطبيعي الذي غايته تحسين الأنواع الموجودة بالفعل ، ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكون في ذلك أي اتجاه محدد لخلق صفات جديدة . ولاحظ دارون أن الفلاح البسيط يمارس هذه العملية بالسليقة حين لا يختار للتناسل إلا أقوى ما عنده من الحيوانات ، وفي حالة المجاعة يبدأ هذا الفلاح بالتضحية بأضعف الحيوانات لديه ، وما يحدث للحيوان يحدث أيضا للنبات ، وهذا في رأي دارون ما تفعله الطبيعة ، وهو ما سماه " البقاء للأصلح " ، و " الصراع من أجل الحياة " . فبفضل هذه الصراعات تحدث التغييرات التي تطرأ على الكائنات مهما كانت ضئيلة ، ومهما كانت أسباب حدوثها للمحافظة على أفراد النوع ، وتنتقل من جيل إلى جيل بشرط ان تكون نافعة لهؤلاء الافراد في علاقاتهم العديدة مع الكائنات الاخرى ، وملائمة للظروف الطبيعية لحياتهم " .

ويرى دارون أن الصراع من أجل الحياة لا يتم الا بواسطة الانتقاء الطبيعي الذي قدمته الطبيعة بطريقة تلقائية للحفاظ على الاصلح .

ويقول دارون : " إن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التي يعيش فيها " . هذا الصراع من أجل الحياة ينطوي بلا شك على صور وحشية ومخزية ، ولكننا - كما يقول دارون - نستطيع أن نعزي أنفسنا حين نوقن ان الحرب ليست حالة دائمة من حالات الطبيعة ، وان موت الكائنات التي يكتب عليها الفناء يحدث في كثير من الحالات بسرعة وبدون ألم ، وأن الكائنات القوية الصحيحة السعيدة هي التي تستطيع ان تعيش وتتكاثر " .

وهكذا نرى أهمية هذه النظرية لأوروبا التي كانت في قمة مجدها في القرن التاسع عشر وخاصة إنجلترا ، وهي تستعبد العالم وتمتص ثرواته ، وتقتل الملايين من البشر في الامريكيتين وغيرها . وقد أباد الرجل الابيض كما تقول دائرة المعارف البريطانية أكثر من مائة مليون من سكان الامريكيتين ، كما أباد أكثر من سبعين مليوناً من الافارقة الذين جلبهم ليزرعوا له ويحرقوا ويموتوا تحت سياطه ، وفي مصانعه ومناجمه . وقد قام الرجل الأبيض بجلب أكثر من مائة مليون أفريقي الى الأمريكيتين والى الجزر المحيطة بهما ... وتسبب في شقاء وآلام لم تعرف البشرية لها مثيلاً في كل تاريخها الطويل المليئ بالمآسي ...

وكان الضمير الأوربي قد مات إلا لدى قلة من الأفراد كانوا يحاولون بعثه من جديد ، فكان لا بد من ايجاد نظرية تتصف بالعلمية لتبرّر هذه الابدات للبشر ، ولم يكن هناك أفضل من نظريات دارون " البقاء للأصلح " . فالرجل الأوربي هو الأصلح ، والدليل على صلاحه هو بقاؤه على هذه الأرض وسيطرته عليها

.. وهو أمر تحدّثه الطبيعة ، وليس للرجل الاوربي أي دور فيه ، بل علينا أن نتقبله كما نتقبل ما يحدث في الطبيعة من الصراع بين النباتات بعضها مع بعض ، والحشرات بينها وبين بعض ... والحيوان بكافة درجاته ، فهذا كله عمل الطبيعة المبدعة الخلاقة للحفاظ على الحياة ولتطويرها ، وإذكاء شعلتها والسير بها قدما الى الامام ، والذي يسقط في الطريق هو الذي يستحق الفناء . وما يعزينا أن الموت يحيق بهؤلاء بأقل درجة من الألم ، بل وفي كثير من الأحيان بدون ألم .

وقد سعدت أوروبا والرجل الابيض بهذه النظرية أيما سعادة فهي تبرّر لها كل جرائمها نحو البشرية ، وأوجد هؤلاء ما أسموه الداروينية الاجتماعية ، وأن الافراد والمجتمعات يتنافسون من أجل البقاء ، وان المتفوقين من الافراد والمجموعات والسلالات يصبحون ذوي نفوذ وثراء ، ونتيجة الانتخاب الطبيعي لا يبقى إلا الأفراد الأكثر استعدادا وملاءمة ، وهم الذين يتكيفون مع المجتمعات الجديدة ، بينما يفشل الآخرون الذين لا يصلحون للبقاء .

ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أن الأفراد الذين يستطيعون البقاء يكدّسون الثروات بأيديهم ، ولذا فالفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة . واعتمد هربرت سبنسر البريطاني هذه النظرية ونشرها وفلسفها ، ولقيت من الرواج ما لقيته نظريات دارون في الطبيعة ، لأن منهجها واحد ويتّجه لتبرير جرائم الرجل الأبيض والرأسمالية البشعة بوجه خاص .

وظهر مفهوم "Business is Business" " العمل هو العمل " ولا أخلاق فيه ، وبالتالي لا بد أن يكون القوي هو الاكثر ذكاء وخداعا وكذبا ... وهو في ذلك يحقّق الطبيعة ، ولا لوم عليه ولا تثريب ، وإنما يقع اللوم والتثريب على المغفّلين والسدّج والفقراء الذين يمتصّ دماهم .

ثم ظهرت العولمة . وهي تعمل لمزيد من سيطرة الأغنياء على الفقراء ، حتى يزداد الاغنياء غنى وقوة ، ويزداد الفقراء فقرا وضعفا ... وإذا ثاروا أو تألموا فيكفي أن نقول لهم : إن هذه هي قوى السوق ، أو قوى الطبيعة ، وأن البقاء للأصلح ، والطبيعة تفعل فعلها ، فهناك انتخاب طبيعي قد قرره دارون منذ قرن ونصف من الزمان ، وما علينا إلا طاعة عوامل الطبيعة ، وعوامل السوق ، وهي التي تقرّر من يبقى ومن يذهب ؟ ومن يعيش ومن يموت ؟ والذكي المخادع الكاذب ، الذي يستخدم كافة الوسائل القذرة للحصول على الثروات والقوة هو الأحق بالحياة ، وهو صاحب الفضل ، لان ذلك ما قرّرتة الطبيعة على لسان دارون ، ومن قبله مalthus ، استاذ دارون والمؤثر فيه وفي أفكاره رغم أنهما لم يلتقيا ، فبينهما نصف قرن من الزمان تقريبا .

وأما مalthus هذا فهو قسيس انجليزي .. الغريب حقا أن كلا دارون ومalthus درسا اللاهوت ، أما دارون فقد تركه غير آسف عليه ، وأما مalthus فاستمر فيه مع دراسته للاقتصاد والسكان

ولد توماس روبرت مalthus (Malthus) عام ١٧٦٦م ، في منطقة سري ببريطانيا ، ودرس اللاهوت في جامعة كمبردج ، وعمل أستاذا في كلية شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند ، وكانت تعدّ رجالاتها في هذه الكلية الخاصة التي كان مalthus من أبرز أساتذتها ، والتي بقي فيها من عام ١٨٠٥م حتى وفاته عام ١٨٣٤م ، عندما كان دارون يجوب البحار في سفينة الأبحاث "بيجل" .

وفي عام ١٧٩٨م نشر مالثوس مقالته عن مبادئ علم السكان ، التي جعلها بعد ذلك في كتاب . وكان مالثوس يرى ان السكان يزدادون على هيئة متواليات هندسية (٢،٤،٨،١٦) ، بينما لا تزداد موارد الطعام إلا على هيئة متواليات حسابية (١،٢،٣،٤) ، وعليه فإن البشرية ستواجه ، حسب وجهة نظره ، ندرة في الطعام ، ولذا لا بد من ايجاد عوائق لهذا النمو المطرد في السكان ، والعوائق الايجابية هي الحروب والمجاعات والأوبئة ... وهذه يمكن استخدامها لمواجهة الانسان البدائي (وهو ما فعلته أوروبا والرجل الأبيض بالنسبة لأفريقيا وآسيا والهنود الحمر في الأمريكيتين) . أما الرجل الابيض المتحضر فينبغي أن يستخدم العوائق الوقائية وهي الرهينة ، وتأخير سن الزواج والامتناع الطوعي عن مباشرة الزوجة فترة من الزمن ، وكلها كان يحبذها حسب ثقافته الكنسية ، أما وسائل منع الحمل فكانت تعتبر لديه لا أخلاقية .

ومن آراء مالثوس أن فقر الفقراء ليس إلا نتيجة لكسلهم ، وأن غنى الأغنياء ليس إلا نتيجة كدّهم وعملهم واجتهادهم ، ولهذا ينبغي أن نُحدّد بصورة جليّة عدد السكان من الفقراء ، وأن البقاء بالتالي ليس إلا للأصلح ، وهم في نظره الأغنياء والأقوياء .

وأوضحت هذه النظرية الاستعمارية الرأسمالية القدرة مدى أخلاقيات رجل الكنيسة الذي سار في ركاب الرأسمالي الجشع وكانت أفكار مالثوس هي الدافع الحقيقي لشارلز دارون الذي اعترف بتأثير مالثوس عليه تأثيرا عميقا ، حيث أوضح مالثوس أن جميع الكائنات الحية تنزع الى التكاثر بسرعة كبيرة ، ولكن القليل من نسلها هو الذي يكتب له البقاء والنماء والوصول الى سن النضج ، وأوضح بجلاء أن حبوب اللقاح أو بويضات الحشرات والزواحف والاسماك والطيور من الكثرة بحيث لا يمكن أن تترك لغيرها أي مجال للبقاء لو نمت كل واحدة منها ، ولهذا لا بد أن تعثرها عوامل الفناء من كل حدب وصوب حتى تُبقى المجال للبقاء للأصلح . وأخذ دارون هذه الفكرة " البقاء للأصلح " واعتمدها اعتمادا كاملا في نظريته ، حيث وجد ان هناك صراعا على البقاء بين الكائنات المختلفة ثم هناك صراع شديد على البقاء بين كل نوع من الأنواع مع افراد نوعه ، وخاصة إذا كانت هناك ظروف بيئية قاسية مثل الجفاف أو الثلوج أو الكوارث.

وعدّد دارون الأمثلة لهذا الصراع ، وانتهى الى القول بأن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وظروف البيئة الخارجية .

وهكذا التقت آراء مالثوس مع آراء دارون لتدعم النظام الرأسمالي الجشع البشع ، وتوجد له الفلسفة النظرية التي تدعّمه باسم العلم والطبيعة ونظريات البقاء للأصلح ، والأصلح عندهم ، دون ريب ، هو الرجل الأوربي الابيض الذي استعمر العالم وأخذ خيراته واستغلّها لنفسه .. ثم في داخل أوروبا ذاتها هناك تفاوت بين العمال الفقراء الأغنياء والأغنياء الأثرياء الأذكياء ، أصحاب رأس المال الذين ينبغي أن تمهّد لهم الطرق ، أو على الأقل أن تبرر جميع سلوكياتهم المناقضة لكل الدوافع الانسانية والخيرة التي تنادي بها الأديان ، على اعتبار ان هذا السلوك الاجرامي ليس إلا ما أفرزته الطبيعة ذاتها . وعلينا أن نسمع ونطبع لهذه الطبيعة بقوانينها القاسية ، والتي فيها الخير للأجناس كلها ، في نهاية المطاف ، لأنها تزيح الأضعف وتُبقى على الأقوى والأصلح !!!

وكما استخدم الرأسماليون نظريات مalthus ودارون لدعم اتجاهاتهم وفلسفاتهم ، كذلك استخدم كارل ماركس آراء دارون في الصراع والبقاء للأصلح في نظرياته حول الصراع الطبقي ، وجعلت الماركسية دارون من أكابر مؤيديها ، وكانت روسيا البلشفية تدعم بكل قوتها آراء دارون وتقيم له المتاحف الكبرى .. وقد بُنيت علوم الطبيعة والبيولوجيا في الاتحاد السوفيتي على آراء دارون ، وتم تطويرها على يد أوبارين الروسي .

والواقع أن نظرية التطور أُخرجت من سياقها العلمي لتحقق أغراضا أخرى لا علاقة لها بالعلم ، وهذه هي المأساة في نظرية التطور .

الخلاصة وملاحظات عامة

(١) إن نظرية التطور نظرية قديمة قال بها اليونان ، وتوسع فيها المسلمون وحولوها الى نظرية لاثبات النبوة واثبات الألوهية ، وإيجاد حلقات الاتصال من الجماد [المتمثل بالذرات المنطلقة في طاقة مكتومة تبلغ أقصى سرعتها في سرعة الضوء (ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية) ، ثم تتحول المادة الى أول مظاهر الحياة في المخلوقات الأولية ووحيدات الخلية ، والبكتريا] . ويحتار العلماء اليوم حيرة شديدة في الفيروسات ، أضعونها في سلم الجمادات أم في سلم الأحياء ؟ فهي خارج الممالك الخمس من الأحياء ، ولا تدخل حتى في أدناها وهي مملكة البدائيات (Monera). فهي جماد خارج الخلايا ، فإذا دخلت أي خلية من الخلايا تحكمت في سرّ السرّ منها وهو الدنا (DNA) ، واستعبدها وجعلتها تآمر بأمرها وتصنع لها ما تريد ، بل تجعلها تصنع أعدادا متكاثرة منها حتى تحطمها ، وتنطلق الى غيرها ، وهي متطفلة على البكتريا والطحالب والنباتات ووحيدات الخلية والديدان والحشرات والحيوانات بأجمعها الى الانسان الذي تسبب له العديد من الامراض (التهاب الكبد الفيروسي بأنواعه A، B، C، ... الخ) ، ومرض الايدز (HIV) ، والجذري والجديري والحصبة والحمى الصفراء وحمى الوادي المتصدع ، ومئات الأمراض الوبييلة والخطيرة والأقل خطورة مثل النزلات (البردية) والمعوية والانفلونزا .

وما هو أشد من الفيروسات تسببها لحيرة العلماء ما يسمى البرايون (Prions) ، وهي عبارة عن بروتينات أو أجزاء من بروتينات ، فهي جماد بدون ريب ، وليس فيها أي حامض نووي (على عكس الفيروسات المكونة من أحد الحامضين النوويين (DNA) أول (RNA) ... ومع ذلك تسبب أمراضا خطيرة أشهرها جنون البقر ، الذي يصيب الانسان أيضا ، ويعرف باسم مرض كرتزفيليد جاكوب . وفي هذا المرض يصبح الدماغ مثل الاسفنجة ، ويفقد الانسان أو الحيوان قدراته كلها ، ويصاب بالجنون والشلل والتخلّج حتى يموت. وهناك مرض كورو (Kuru) الذي كان منتشرا في جزر غينيا الجديدة (في وسط المحيط الهادي بالقرب من استراليا) ، حيث كانوا يأكلون أدمغة موتاهم على اعتبار انتقال الأرواح بواسطتها من الاسلاف الى الأبناء ، فأدى ذلك الى انتشار هذا المرض بينهم ، ثم اختفت هذه الطقوس منذ عام ١٩٦٠م ، وبدأ المرض في الاختفاء أيضا .

وتنتقل الحياة من البسيط الى المعقد حتى تصل أقصى مداها في الانسان ، الذي أكرمه الله بالعقل والفكر والروية . ومن الانسان ينتقل في لحظة من اللحظات إلى أفق الملائكة ليتلقى النبي الكريم عن الملك ، والملائكة خلق من نور .. وهكذا تتوحد الدائرة ، فهي طاقة نورانية مكتومة في الذرة ، تنطلق بأقصى سرعتها في الضوء أو النور ، ثم تتكثف وتتطور عبر ملايين الأنواع حتى تصل في أقصى مداها الى عالم النور السرمدي في الأفق الأعلى مع الملائكة وعالم الأرواح الألق .

والدورة تتكرر في كل لحظة وأن ، فالطعام الذي نأكله ، وهو جماد ، يتحول في أجسادنا إلى طاقة وإلى خلايا حية بها نعيش وبها نتناسل وبها تظهر عجائب الخلق كلها المكنونة والظاهرة ... وهو أمر عجب ، فالتراب يتحول الى نبات والنبات الى غذاء والغذاء الى خلايا في جسم الانسان والحيوان لتتكمّل الدائرة .

(٢) استخدمت نظرية التطور لمحاربة الكنيسة خصوصا والأديان عموما ، ولليهود في ذلك دور كبير ، وقد سبق الإشارة الى ذلك ، وأيدناه بما ذكره الاستاذ محمد قطب والاستاذ سيد قطب رحمة الله عليهما وغيرهما ...

(٣) النظرية في ذاتها ليست دافعا للكفر ، بل يمكن أن تكون دافعا للإيمان ، كما قرّره المسلمون الأوائل ، وكما قرّره الدكتور أوارد كيسيل ، أستاذ علم الاحياء في جامعة سان فرانسيسكو ، والدكتور موريس بوكاي (رحمه الله ، فقد أسلم وسمعت ذلك منه شخصيا) وما ذكره في كتابه : أصل الانسان (What is the Origin of man) يوضح منهجه وطريقته ... بل إن والاس ، شريك دارون في هذه النظرية ، كان رجلا شديد الايمان بالله .

(٤) لا تزال النظرية فروضا في كثير من جوانبها وتفتقد الأدلة العلمية ، حتى لو أزلنا جانبها الإلحادي ، فموضوع الطفرات (Mutation) في الجينات التي تعتمد عليها الداروينية الحديثة غير مقنعة على الإطلاق في ايجاد مجموعات متباينة أشد التباين من المخلوقات .. والطفرات تؤدي الى الأمراض في معظم الحالات ، والى التشوهات لا الى الترقّي وايجاد أنواع جديدة .

ومما يحير العقل أن تبقى البكتريا القديمة (Arche bacteria) ، منذ أكثر من ألفي مليون عام ، دون تطور ، بل مما يزيد الامر تعقيدا وجود الفيروسات ، وما هو أشدُّ منها وجود البايرونات (Prions) المسببة لجنون البقر . ففي أي رتبة يمكن أن نضع هذه المخلوقات ؟ أي هي حية أم جماد ؟ والعلماء في ذلك في حيص بيص ، ولاشك ان الفيروسات أيضا قديمة قدم الحياة على الارض ، فلماذا لم تتطور خلال ألفي مليون عام أو تزيد ؟.

ثم انظر إلى عالم الأولويات : البروتوزوا والطحالب الخضراء المزرقّة ، ما بالها لم تتغيّر ، ولم تتطوّر خلال ألف مليون عام أو تزيد ؟ وهي موجودة اليوم في سلم الحياة الأدنى ، تؤدي وظائفها المنوطة بها في هذه الأرض ، وحفظ توازن الأحياء متطلّعة ورُميّة وصانعة للغذاء .

(٥) **حماسة التطوريين التي تدفعهم الى الغش والخداع** ، كما حدث من أرنست هيكل في رسومه للأجنة ، وتلفيق العظام كما في إنسان بيلتدو (Piltdown man) وإنسان بكين وإنسان هيدلبرج ، وكلها تدلّ على مستوى منحطّ ولا أخلاقي ليس له مثيل في أي فرع من فروع العلم الأخرى .

والدافع لهؤلاء الى الغشّ والخداع والكذب هو أن النظرية قد تحوّلت الى دوجما (عقيدة) يجب الدفاع عنها بأي شكل من الأشكال ، حتى لو وصل الى التزوير أو اعتساف الأدلة .. والسبب الحقيقي هو الحرب بين الكنيسة والعلم ، وما تبع ذلك من مأس في القرون الوسطى وعصر النهضة .

(٦) **ينبغي أن تبقى النظرية في مجالها العلمي البحت** ، فقد يصح منها جوانب كما يسقط منها جوانب ، وكلما تقدم العلم تغيّرت المعلومات ، وعليه ، فلا ينبغي أن نتحمّس لدرجة التعصب لهذه النظرية أو ضدها .

وأما الجانب الإلحادي في النظرية فهو مضاف إليها ، وليس منها في شيء . فصاحب النظرية ، دارون ، لا ينكر الايمان بالله ، وإن كان قد أصابه الدوار وأصبح متشكّكا ، وأما زميله والاس فرجل شديد الايمان بالله ، ولم تزد النظرية إلا إيمانا .

(٧) **وجدت نظرية دارون والبقاء للأصلح دعم أوروبا كلها والرجل الأبيض** ، وذلك لأنها تبرز للرجل الأبيض كل جرائمه في سرقة الشعوب واحتلال بلادهم واستغلال خيراتهم وإثارة الحروب بينهم .. فهذا كله من ضمن الصراع من أجل البقاء .. والبقاء دائما للأصلح ، والأصلح هو الذي يستطيع أن يتغلّب على الآخرين بأيّ وسيلة من الوسائل مهما كانت قذرة ولا أخلاقية . فالتبيعة لا تعرف الأخلاق ، والخير كل الخير للكائنات ، أن يبقى الأقوى أو المخادع الكاذب المخاتل ، اللص الحقيّر مادام يستطيع أن يخدع غيره ويستولي على ماله . ولا تزال الرأسمالية سعيدة جدا بأراء دارون ومالثوس في هذا المجال ، بل وازدادت الحاجة الى هذه النظريات بدخول عصر العولمة .